أخبار رجال الموصل واعلامها في كتاب المنتظم

لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

The News of the Men of Mosul and its Pioneers in the book Al-Muntazm by Ibn Al-Jawzi (d. 597 AH/1200 AD)

م.د. زكريا هاشم أحمد الخضر

Dr. Zakaria Hashim Ahmed Al-Khidr

جامعة سامراء – كلية الآداب

Samarra University - College of Arts

E-mail: Zakria.ha.ah@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الموصل/ بغداد/ ابن الجوزي/ ابن جهير/ المعافى بن عمران/ ابن جني

Keywords: Mosul / Baghdad / Ibn al-Jawzi/ Ibn Juhir/ Al-Mu'afa ibn Imran / Ibn Jinni

الملخص

شهدت العلاقات بين الموصل وبغداد على مدى القرون الخمسة قبل الاحتلال المغولي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، نقطة استقطاب لأعيان الموصل من العلماء والمفكرين ورجالات الدولة الذين أسهموا بشكل أو بآخر في الحياة العامة ببغداد، وقدَّمت المصادر التاريخية معلومات قيمة حول تلك الشخصيات وطبيعة اختصاصاتها، ويبرز من بين تلك المصادر كتاب المنتظم لابن الجوزي (ت، ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) الذي قدَّم صورة عامة وشاملة لأغلب الأعلام من مختلف العالم الإسلامي الذين أسهموا بصورة أو بأخرى في الحياة العامة ببغداد، لذا كان هذا الكتاب ميداناً لبحثنا عن أبرز الشخصيات الموصلية التي تركت أثراً في الحياة العامة ببغداد.

Abstract

The relations between Mosul and Baghdad over the five centuries before the Mongol occupation in 656 AH/1258 AD witnessed a point of attraction for the pioneers of Mosul, including scholars, thinkers, and statesmen who contributed in one way or another to the public life in Baghdad. Historical sources provided valuable information about these figures and the nature of their specializations. Among these sources stands out the book Al-Muntazam by Ibn al-Jawzi (d. 597 AH/1200 AD), which presented a general and comprehensive picture of most of the notables from different parts of the Islamic world who contributed in one way or another to the public life in Baghdad. Therefore, this book was the field of our research into the most prominent Mosul figures who left an impact on the public life in Baghdad.

المقدمة:

يعد التراث التاريخي الإسلامي من أغنى المصادر التي حفظت لنا أخبار الأمم الماضية وحضاراتها، وتأتي في مقدمة ذلك التراث كتب التاريخ التي أرخت للأحداث على نظام الحوليات، مما يمنح الباحث رؤية واضحة ودقيقة لتطور المجتمعات والدول، ويبرز من بين تلك المصنفات كتاب "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" لجمال الدين ابن الجوزي (ت، ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، والذي يعد مصدراً مهماً للأوضاع العامة في العراق تحديداً خلال العصور العباسية المتأخرة، وبشكل خاص القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، ورغم أن ابن الجوزي كان يكتب من قلب الخلافة ببغداد، مما جعلها محور عنايته الأول، إلا أن كتابه زخر بالأخبار والتراجم المتعلقة بالمدن والأقاليم الإسلامية الأخرى التي كانت تمثل مراكز ثقل سياسي وعلمي وحضاري، وكان من أبرزها مدينة الموصل، والتي لعبت دوراً محورياً في الأحداث السياسية والعسكرية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، فضلاً عن كونها مركزاً علمياً وفقهياً مرموقاً أنجب العديد من الأعلام البارزين.

ولذلك ضمَّ الكتاب أخباراً ومقتطفات تتناول بعض رجال الموصل وأعلامها موزعة بين ثنايا الكتاب الضخم، ولم تحظ بدراسة مستقلة تجمع هذا الشتات وتخضعه للدراسة، من خلال جمع وتصنيف كافة الأخبار المتعلقة برجال الموصل وأعلامها بحسب مهامهم ووظائفهم وأدوارهم الحضارية.

وبالرغم من ظهور دراسات سابقة تناولت أعلام الموصل في بعض كتب الطبقات والتراجم، مثل أطروحة "علماء الموصل من خلال كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)" ودراسة ميسون ذنون العبايجي "جهود الخطيب البغدادي في تدوين أخبار علماء الموصل" والتي غطت المدة الزمنية حتى منتصف القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، إلا أن ابن الجوزي يبقى المصدر الأكثر قرباً زمانياً ومكانياً لأبرز رجالات الموصل، وبذلك تبقى معلوماته أكثر دقة.

قسم البحث إلى عدة محاور:

تضمن المحور الأول: سيرة ابن الجوزي وكتابه المنتظم، فيما توزعت المحاور الخمسة الأخرى على أخبار رجالات الموصل وأعلامها في مجالات الحديث الشريف، والقضاء والفقه، والزهد، والشعر والأدب، وأخيراً رجال الدولة وأعلامها.

المحور الأول: سيرة ابن الجوزي وكتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم:

أولًا – سيرة ابن الجوزي:

١ – **أسمه ونسبه ولقبه وكنيته:** عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن البكري التيمي القرشي البغدادي، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، وقيل أن جده عُرف بهذه التسمية لسكناه في دار بواسط بها شجرة جوز، وقيل أنها ترجع إلى بيع الجوز (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/١؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ١٢/١١٠٠؛ الجاسم، ٢٠٢٣، ص١٠١).

٢. **ولادته ونشأته:** ولد ابن الجوزي في مدينة بغداد ما بين سنتي (٥٠٨ – ٥١٠ هـ/ ١١١٤ – ١١١٦م)، ونشأ وترعرع فيها في بيت علم وورع، وحفظ القرآن في صغره، وتلقى علومه على أيدي كبار علماء عصره في بغداد، فبرع في التفسير والحديث والفقه واللغة، كما اشتهر بالوعظ الذي جذب إليه العامة والخاصة (ابن الأثير، د. ت، ٣٣٩/١؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ١٣/ ٣٦؛ السيوطي، ١٩٨٣، ص٤٨٠).

٣. **سيرته العلمية:** برز ابن الجوزي كأحد اعلام الحكة الفكرية ببغداد والعالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، فقد تلقى علومه على يد أكابر شيوخ عصره، وقد بلغ عددهم (٨٧) شيخاً، كان من أبرزهم قدوة الدين إبراهيم بن دينار بن أحمد الحنبلي (ت، ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، وأبو السعادات أحمد بن أحمد المتوكلي (ت، ٥٢١هـ/ ١١٢٧م) (الذهبي، ١٩٩٨، ٤/ ٩٢).

ونتيجة لسعة علمه صنَّف ابن الجوزي أكثر من (٣٠٠) مصنف تنوعت بتنوع العلوم التي برع فيها، فكانت له مصنفات في علوم القرآن مثل كتاب (المغني في علم القرآن)، وكتاب (زاد المسير في علم التفسير)، وفي علوم العربية كتاب (فضائل العرب)، وكتاب (تقويم اللسان)، وفي الفقه كتاب (المنفعة في المذاهب الأربعة)، وكتاب (التلخيص)، ويعد كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم من ابرز مؤلفاته في التاريخ (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ٢٢/ ٩٧ – ١٠٠؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ١٢/ ١١٠٢؛ الجاسم، ٢٠٢٣، ص١٠٣).

وكان من أبرز تلاميذه حفيده شمس الدين أبو المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي (ت، ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، وولده محي الدين يوسف ابن الجوزي (ت، ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، (الذهبي، ٢٠٠٣، ١٤/ ٧٦٧، ٨٥٤).

٤ – **وفاته:** توفي يوم ١٢ رمضان سنة (٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م)، ودُفن في مقبرة باب حرب ببغداد (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ٢٢/ ٩٧ – ١٠٠؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ١٢/ ١١٠٢).

ثانيًا: التعريف بكتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم

وهو كتاب في التاريخ العام، جمع فيه ابن الجوزي أخبار الأمم السـابقة، والأنبياء، ثم تاريخ الإسـلام حتى عصـره، بأسـلوب يجمع بين التوثيق والسـرد الأدبي الممتع، ويمثل خلاصـة فكر ابن الجوزي ونظرته للتاريخ من زاوية شـرعية أخلاقية، بعيدًا عن التمجيد المجرد أو التهوين غير المنضـبط، وقد شـكّل الكتاب إضـافة نوعية في علم التاريخ الإسـلامي، سـواء من حيث المحتوى أو المنهج، وقد اعتمد في تأليفه على الترتيب الزمني للأحداث وهو ما يُعرف بنظام الحوليات، معتمداً في سـرده على الروايات الموثوقة، ومسـتخدماً في منهجه النقد والتمييز بين الروايات الصـحيحة والضـعيفة، وشـمل سـرداً تاريخياً يبدأ من خلق آدم عليه السـلام إلى أواخر القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد.

وبذلك يُعد الكتاب مصـدرًا رئيسًـا للباحثين في التاريخ الإسـلامي، فنقل عنه كثير من المؤرخين مثل: الذهبي (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، وابن كثير (ت، ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) (الجاسـم، ٢٠٢٣، ص ١٠٤).

المحور الثاني: رواة الحديث النبوي الشريف

انتقل عدد من الرواة من مدينة الموصـل إلى بغداد منذ نهاية القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وقدموا جهوداً كبيرة في مجال رواية الحديث النبوي الشريف، وأسهموا إسهاماً واضحاً في الحركة الفكرية ببغداد على مدى قرون عديدة، ومن أبرز أولئك الرواة:

١ – فتح بن محمد بن وشاح، أبو محمد الأزدي الموصلي (ت، ١٧٠هـ/ ٧٨٦م):

قال عنه ابن الجوزي: ((لم يكن أعقل منه، وليس هذا بفتح الموصلي المكني بأبي نصر، ... وأكثر الحكايات عن أبي نصر لا عن أبي محمد)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ٨/ ٣٣٤).

٢ – المعافى بن عمران بن محمد، أبو مسـعود الأزدي (ت، ١٨٤ أو ١٨٦هـ/ ٨٠٠ أو ٨٠٢م):

رحل في الحديث إلى البلدان النائية، وجالس العلماء، ولزم سـفيان الثوري فتفقه به، وتأدب بآدابه، وأكثر الكتاب عنه، وعن غيره، حدَّث عن سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وغيرهما كثير، وكان زاهدًا عابدًا، فاضلًا عاقلًا، صاحب سُنّة ثقة، صنف كتباً في السنن، والزهد والأدب، روى عنه موسـى بن أعين، وعبد الله بن المبارك، وكافة الموصـليين، توفي بالموصـل (الأزدي، ١٩٦٧، ص٣٠١؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ٩/ ١٠١؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٣/ ٦٣) .

٣ – عمر بن أيوب، أبو حفص العبدي الموصلي (ت، ١٨٨هـ/ ٨٠٤م):

كان حسن العناية بطلب الحديث، كثير الكتابة له، رحل إلى الشام والعراق، قدم بغداد وحدَّث بها، فروى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، كان ثقة (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ٩/ ١٥٩)، كان من أشد الناس حياء، قال عنه ابن أبي حاتم: ((ليس به بأس)) (ابن أبي حاتم، ١٩٥٢، ٦/ ٩٩)، رحل إلى الرقة لمقابلة الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ/ ٧٨٦–٨٠٩م)، وهو بالرقة يشكو قاضياً كان على الموصل، فأدركه أجله هناك (الأزدي، ١٩٦٧، ص٣٠٦)

٤ – غسان بن الربيع بن منصور، أبو محمد الغساني الأزدي (ت، ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م):

سمع حماد بن سلمة، روى عنه أبو يعلى الموصلي وغيره من أهل بلده، كان نبيلاً فاضلاً ورعاً صالحاً، قدم بغداد وحدَّث بها (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١١/ ١١٣)، كتب عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، له نسخة مروية، توفي بالموصل (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢، ١٤/ ٢٨٥؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ٥/ ٦٥٢).

٥ – عبد الله بن محمد بن عزيز، أبو محمد التميمي (ت، ٢٨٧ أو ٢٨٨هـ/ ٩٠٠ أو ٩٠١م):

سكن بغداد وحدَّث بها عن غسان بن الربيع، روى عنه إسماعيل بن علي الخطبي، كان ثقة. (ابن ماكولا، ٢٠٢٢، ص٤٨٠؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٢/ ٤١٩).

٦ – محمد بن الحسن، أبو الحسين صاحب النرسي، خوارزمي الأصل، (ت، ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م):

حدَّث عن يحيى بن هاشم السمسار، وعلي بن الجعد، روى عنه مكرم بن أحمد القاضي، سكن الموصل، وكان في حديثه لين، توفي بالموصل. (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ٥٤).

٧ – الحسين بن الكميت بن البهلول بن عمر، أبو علي الموصلي (ت، ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م):

دخل بغداد قبل سنة (٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، وحدَّث بها عن غسان بن الربيع، وأبي سلمة أحمد بن نافع، روى عنه أبو عمرو ابن السماك، وعبد الصمد بن علي الطستي، كان ثقة. (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ٥١؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ٦/ ٩٤٠).

٨ – إبراهيم بن علي بن إبراهيم ، أبو إسحاق العمري الموصلي (ت، ٣٠٦هـ/ ٩١٨م):

دخل بغداد وحدَّث بها عن عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، ومعلى بن مهدي، وغيرهما، روى عنه يحيى بن محمد بن صاعد، وجعفر الخلدي، كان ثقة، فقد سمعه أواخر حياته (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢، ٧/٥١؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ١٨٤؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ٧/ ١٠٢).

٩ – ثوابة بن أحمد بن عيسى بن ثوابة بن مهران، أبو الحسين الموصلي (ت، ٣٥٣هـ/ ٩٦٣م):

قدم بغداد، وحدَّث بها عن أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى، وأحمد بن الحسين الجرادي، روى عنه أبو الحسن الدارقطني، وأبو الحسن بن رزقويه، كان ثقة صدوقاً، مات بمصر سنة (٣٥٣هـ/ ٩٦٣م) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ١٥٨)، فيما ذكر آخرون أن وفاته كانت سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٧/ ٣٦٠؛ ابن منظور، ١٩٨٤، ٥/ ٣٤٥).

١٠ – محمد بن إبراهيم بن العباس بن الفضيل، أبو اليسر الموصلي (ت، بعد ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م):

قدم بغداد سنة (٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)، وروى بها عن أبي يعلى الموصلي كتاب معجم شيوخه، سمعه منه محمد بن أبي الفوارس، وأبو عبد الله أحمد بن محمد ابن الكاتب (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ١٨٦).

١١ – محمد بن الحسين بن أحمد، أبو الفتح الأزدي (ت، ٣٦٩ أو ٣٧٤هـ/ ٩٧٩ أو ٩٨٤م):

نزل بغداد، وحدَّث بها عن أبي يعلى الموصلي، والهيثم بن خلف الدوري، وغيرهما، حدَّث عنه محمد بن جعفر بن علان الشروطي، وعبد الغفار بن محمد المؤدب، كان حافظاً حسن المعرفة، صنَّف كتباً في علوم الحديث، من أبرزها كتاب (من وافق اسمه كنية أبيه)، إلا أن في حديثه غرائب ومناكير، توفي بالموصل (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ٣٠٨).

١٢ – محمد بن الحسين بن محمد بن سعدون، أبو طاهر البزاز (ت، ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م):

ولد بالموصل، ونشأ ببغداد، وسمع أبا عمر بن حيويه، وأبا بكر بن شاذان، وأبا الحسن الدارقطني، وغيرهم، كتب عنه الخطيب البغدادي، كان صدوقاً يسكن بدرب الزعفراني حذاء مسجد البصريين، رحل إلى مصر ومات هناك سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢، ٣/ ٥٤؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٦/ ١٢؛ المقريزي، ٢٠٠٦، ٥/ ٣٢٢).

١٣ – هبة الله بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله البزدوي (ت، ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م):

سمع أبا القاسم بن بشران وغيره، كان فاضلاً صالحاً صحيح السماع، عمَّر حتى انتشرت عنه الرواية، وتوفي ببغداد ودفن في مقبرة باب حرب (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٧/ ١١٤).

قدَّم ابن الجوزي مجموعة من أبرز رواة الموصل ومحدثيها ممن قدموا بغداد ورووا فيها الحديث النبوي الشريف، وأسهموا بشكل أو بآخر في رفد الحركة الفكرية ببغداد، وعند تتبع المنحى التاريخي لمجموع الرواة والمحدثين يتضح أن (١٣) شيخًا ترجم لهم ابن الجوزي (سبعة محدثين، وستة رواة) وعنى بذكر تفاصيل ومعلومات عنهم، وتراوحت تلك العناية ما بين ذكر بعض التفاصيل المهمة مثل سنة الولادة، وتاريخ دخولهم لبغداد، وبعض الحكايات المشهورة عنهم، في حين اكتفى بتراجم مقتضبة عن البعض الآخر، ويبدو أن تركيز ابن الجوزي على العلماء والمحدثين الأبرز من الموصليين.

امتد توثيق ابن الجوزي لمحدثي الموصل ليشمل أكثر من ثلاثة قرون، إذ بدأ بأقدمهم ذكرًا فتح الموصلي (ت، ١٧٠هـ/ ٧٨٦م)، فيما كان آخرهم أبو عبد الله البزدوي الموصلي (ت، ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، وتبين بحسب تواريخ وفياتهم أن القرنين الرابع والخامس للهجرة شهدا أكثر حضوراً لرواة ومحدثي الموصل عند ابن الجوزي، بواقع أربعة شيوخ لكل قرن، فيما كان القرن السادس للهجرة أقل القرون فجاء ذكر محدث واحد (أبو عبد الله البزدوي).

لم يتضح مدد إقامة رواة الموصل في بغداد، ورغم ذلك يبدو أن بعضهم قد فضَّل الإقامة والاستقرار في بغداد، في حين عاد البعض الآخر إلى الموصل وأكمل مسيرته العلمية هناك، أما القسم الثالث وهم النسبة الأقل فقد هاجروا إلى بلدان أخرى واستقروا فيها وماتوا هناك، ويتبين أن اثنين من شيوخ الموصل فضلوا الاستقرار في بغداد بقية حياتهم، فأشار ابن الجوزي في بعض تراجمهم أنهم سكنوا بغداد، وذكر في تراجم أخرى أنهم ماتوا ودفنوا ببغداد، أما القسم الثاني ففضلوا العودة إلى الموصل وعددهم خمسة واستقروا هناك وماتوا فيها، في حين انتقل اثنين منهم إلى مصر واستقروا هناك وهما، أبو طاهر البزاز الموصلي (ت، ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، وثوابة بن أحمد الموصلي (ت، ٣٥٣هـ/ ٩٦٣م)، فيما لم يقف ابن الجوزي على مكان وفاة ثلاثة من رواة الموصل، ويبدو أن السبب وراء إهمال ذكر مكان وفياتهم هو أنهم كانوا من المجاهيل فبدت تراجمهم مقتضبة لا تزيد عن بضعة معلومات تتعلق بأسمائهم وألقابهم وأبرز شيوخهم وتلاميذهم.

ورغم أن الأسباب الموجبة لاختيار هؤلاء الرواة لمصيرهم ما بين البقاء والإقامة ببغداد، أو العودة إلى الموصل أو اختيار مكان آخر يقيمون فيه، تبدو غير واضحة مطلقاً لكن يمكن تعليل بعض الحالات منها، فربما كان العامل الاقتصادي ومن ثم العلمي هو المحدد الأساس لقرار الإقامة في بغداد أو العودة إلى الموصل.

وعند تتبع أصول رواة الموصل يبدو أن أربعة منهم لم يقف ابن الجوزي على أصولهم، مما يصعب معه التحقق منها، ويبدو أن السبب في ذلك يعود بالدرجة الأساس إلى أن غالبيتهم كانوا رواة مجاهيل غير معروفين، هذا من جانب ومن جانب آخر أن مسألة الولاء والانتماء، قد تغيرت ملامحها وطبيعتها عبر العصور، ففي القرون الثلاثة الأولى نرى شيوع الانتماء القبلي واضحاً في المجتمع العربي الإسلامي مما أدى إلى بروز ألقاب القبائل والبطون والأسر الكبيرة، لكن بدأ الولاء يتغير تدريجياً منذ القرن الثالث للهجرة من الولاء للقبيلة إلى الولاء للإقليم أو المنطقة أو البلد أو المدينة، مما بدأ تراجع ألقاب كانت شائعة في القرون الأولى مثل الانتساب للقبيلة ومعه مصطلح (مولى) بسبب انصهار العناصر المسلمة من غير العرب في النسيج الاجتماعي للحضارة العربية الإسلامية، وبتغير تلك الألقاب أصبح من العسير التوصل إلى الأصول الحقيقية لكثير من الشخصيات الإسلامية التاريخية، فوقع الخلاف حول الكثير منها من قبل المؤرخين وحتى الباحثين المحدثين.

وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت بعض الشخصيات تحتفظ بأصولها العربية، وقد أشار ابن الجوزي ضمناً إلى أصول سبعة من الرواة والمحدثين الموصليين الذين ترجم لهم والتي تعود أنسابهم إلى القبائل العربية، فكانوا أربعة رواة من الأزد، وواحد من تميم، وواحد من عبد القيس، وآخر عمري ينتسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ٨/ ٣٣٤؛ ٩/ ١٠١، ١٥٩؛ ١١/ ١١٣؛ ١٢/ ٤١٩؛ ١٣/ ١٨٤؛ ١٤/ ٣٠٨)، مما يعني أن نسبتهم لمجموع الرواة والمحدثين أكثر من النصف، وتبدو النسبة طبيعية إذا ما أخذ بنظر الاعتبار أن الموصل ونواحيها كانت أبرز المناطق التي استقر فيها العرب خارج الجزيرة العربية منذ وقت مبكر حتى أنها عدَّت مركزاً لديار ربيعة إحدى الديارات الثلاث للجزيرة الفراتية.

أما أصول الرواة المتبقين وهم اثنين، كان أحدهم خوارزمي، والآخر من بزدة، وهي قلعة حصينة في بلاد ما وراء النهر (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ٥٤؛ ١٧/ ١١٤؛ السمعاني، ١٩٨٢، ٢/ ٢٠١).

خصص ابن الجوزي مساحة داخل تراجمه لتقييم الرواة والمحدثين على أساس الجرح والتعديل وطبيعة نقولاتهم ومروياتهم، ومن خلال ذلك يمكن تحديد مستوى التأثير لرواة المواصلة ودورهم في نقولاتهم للحديث النبوي الشريف، فيظهر اختلاف في طبيعة تجريحهم والحكم عليهم، فاستخدم مصطلحات عديدة في ذلك الحكم ومنها: أنه أطلق حكم " ثقة " على خمسة رواة (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ٩/ ١٠١، ١٥٩؛ ١٢/ ٤١٩؛ ١٣/ ٥١، ١٨٤؛ ١٤/ ١٥٨) مما يعني أن هؤلاء أثبتوا مكانتهم ضمن المجالس العلمية التي زخرت بها جوامع ومساجد بغداد، فيما أطلق حكم " صدوق " على اثنين منهم (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ١٥٨؛ ١٦/ ١٢)، فيما استخدم أحكام أخرى، فقد وصف أبا الفتح الأزدي بقوله: ((كان حافظاً حسن المعرفة)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ٣٠٨)، ونعت محمد بن الحسين صاحب النرسي بأنه: ((كان في حديثه لين)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ٥٤)، وظهرت أحكامًا أخرى مثل: (صحيح السماع)، و(كان نبيلاً فاضلاً ورعاً)، و(لم يكن أعقل منه) كل هذه الأحكام أطلقت على ثلاثة من رواة ومحدثي الموصل (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ٨/ ٣٣٤، ١١/ ١١٣، ١٧/ ١١٤).

المحور الثالث: الفقهاء والقضاة

١ – الحسن بن موسى، أبو علي، الأشيب الحنفي الخراساني (ت، ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م):

ولي القضاء بالموصل وحمص في عهد الخليفة هارون الرشيد، ثم عزله الخليفة المأمون سنة (٢٠٦هـ/ ٨٢١م) فانتقل إلى بغداد وحدَّث فيها، ثم تولى قضاء طبرستان، فتوجه إليها، روى عن حماد بن سلمة، وشعبة بن الحجاج، وغيرهما، روى عنه أحمد بن حنبل، وعباس الدوري، كان ثقة صدوقاً ورعاً، قيل أنه كان بالموصل بيعة للنصارى، فخُرِّبت، فاجتمع النصارى إليه، وجمعوا له مئة ألف درهم على أن يحكم بها حتى تبنى، فقال: ادفعوا المال إلى بعض الشهود، فلما حضروا في الجامع قال للشهود: اشهدوا علي أنني قد حكمت بأن لا تبنى هذه البيعة، فانصرف النصارى، ورد عليهم أموالهم ولم يقبل منه درهماً واحداً، إنما فعل ذلك لثبوت البينة عنده أن البيعة محدثة بنيت في الإسلام، إذ لو كانت قديمة لما جاز له منعهم من بنائها، وإنما أشهد على المال ليعلم عفافه وورعه، وأنه لم يقبل مثل هذه الرشوة، توفي بالري (الأزدي، ١٩٦٧، ٣٦٠ –٣٦١؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٠/ ٢٠١؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٤/ ٥٩).

٢ – الحسن بن سعيد بن مهران، أبو علي الصفار المقرئ (ت، ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م):

قدم بغداد قبل سـنة (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، وحدَّث بها عن غسـان بن الربيع، ومعلى بن مهدي، (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ٣٨)، روى عنه محمد بن مخلد، وعبد الصـمد بن علي الطستي، كان كثير الكتاب، متعففاً، توفي سنة (٢٩٢هـ/ ٩٠٤م) (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٨/ ٢٩١؛ الزنتاني، ٢٠٠٩، ١/٣٩٤).

٣ – عبد الله بن الحسين بن إسماعيل، أبو بكر الضبي المحاملي (ت، ٣٧١هـ/ ٩٨١م):

سـمع أباه، وأبا بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسـابوري وغيرهما، ولي القضـاء ببلاد عدة، وحدَّث شـيئاً يسـيراً، ولاه الخليفة المتقي بالله سـنة (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) القضـاء على آمد، وأرزن، وميافارقين، ثم ولاه سـنة (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) القضـاء على طريق الموصـل، وقطربل، ومسـكن، ونهر بوق، وغير ذلك، وولاه الخليفة المطيع لله سـنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) القضـاء على الموصـل، والحديثة وما يتصـل بذلك، ثم قضـاء حلب وأنطاكية وأعمالهما، ثم القضـاء على ديار بكر وأرمينية، وأعمال ذلك، كان عفيفاً نزهاً فقيهاً يسـلم الناس من يده ولسـانه (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ٢٨٤؛ السبكي، ١٩٩٣، ٣/ ٣٠٧).

٤ – محمد بن أحمد بن محمد، أبو جعفر السمناني (ت، ٤٤٤هـ/ ١٠٥٣م):

ولد سنة (٣٦١هـ/ ٩٧١م) سكن بغداد وحدَّث عن علي بن عمر السكري، وأبي الحسن الدار الدارقطني، وابن حبابة وغيرهم، كان عالماً فاضـلاً سـخياً حسـن الكلام، كان يعتقد في الأصـول على مذهب الأشـعري، وكان له في داره مجلس نظر يحضـره الفقهاء ويتكلمون، توفي بالموصل وهو القاضي بها بعد أن كف بصره (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٥/ ٣٣٨).

٥ – محمد بن علي بن عبيد الله بن أحمد بن صالح بن سليمان بن ودعان، أبو نصر القاضي (ت، ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م):

تنسـب إليه الأحاديث الأربعين الودعانية الموضـوعة، دخل بغداد سـنة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)، وروى أحاديث مناكير وموضـوعات، ثم عاد إلى الموصـل ومات فيها (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٠/ ٢١٠؛ سـبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٩/ ٥١٨ – ٥١٩؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ١٠/ ٧٦٠).

٦ – محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن الحسن، أبو الفضائل الربعي (٤٩٤هـ/١١٠٠م):

تفقه على أبى إسحاق الشيرازي، وسمع الحديث من أبى الطيب الطبري، وأبى إسحاق البرمكي، وغيرهما، وكتب الكثير، وروى عنه أشياخ بغداد، كان فقيهاً صالحاً فيه خير، توفي ببغداد ودفن بالشونيزي (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٧/ ٧٠؛ السبكي، ١٩٩٣، ٤/ ١٠٣).

٧ – منصور بن هبة الله بن محمد، أبو الفوارس الموصلي الحنفي (ت، ٥٢٣هـ/ ١١٢٧م):

ولي القضاء بإحدى نواحي بغداد، كان من المجودين في النظر ومعرفة المذهب، وردت إليه الحسبة بالجانب الغربي، توفي ببغداد ودفن بالخيزرانية (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٧/ ٢٥٥).

٨ – محمد بن القاسم بن المظفر بن علي، أبو بكر الشهرزوري (ت، ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م):

ولد بأربل ونشأ بالموصل، انتقل إلى بغداد في صباه، وسمع بها من أبي القاسم عبد العزيز بن علي الأنماطي، وأبي نصر الزينبي، وغيرهما، ورحل إلى خراسان وطاف بلادها، وسمع بها من جماعة، وعاد إلى بغداد واستقر بها، حدَّث بالكثير بالموصل وبغداد وغيرهما، كان فاضلاً عالماً، وكان يرجع إلى عقل وثبات ولي القضاء بعدة بلدان من الشام والجزيرة، توفي ببغداد ودفن بمقبرة باب أبرز (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ٣٧؛ ابن المستوفي، ١٩٨٠، ١/ ٢٠٢؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ٢٠/ ٣٤٧).

٩ – عبد الله بن محمد بن هبة الله، أبو سعد التميمي، شرف الدين بن أبي عصرون (ت، ٥٨٥هـ/ ١١٨٧م):

ولد بالموصل وقدم بغداد، فأقام بها مدة، وقرأ القرآن، على جماعة، منهم الشيخ محمد بن بنت الشيخ، وأبو عبد الله البارع الأديب، قرأ عليه بالسبعة، وغيره، وتفقه على القاضي أبي محمد بن الشهرزوري، وسمع الحديث من ابن الحصين، وابن السمرقندي، صنَّف كتباً كثيرة، ودرَّس الفقه، وأفتى وناظر في الموصل وسنجار، ورحل إلى حلب ثم دمشق وتولى أوقاف المساجد بدمشق، ثم عاد إلى حلب، وولي القضاء بسنجار ومناطق أخرى، ثم عاد إلى دمشق، فتولى القضاء بها، مات بدمشق (ابن المستوفي، ١٩٨٠، ٢/ ٤١٧؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ٢١/ ٣٧٣).

ترجم ابن الجوزي لتسعة شخصيات من قضاة وفقهاء الموصل، ظهر من بينهم ثلاثة ينتسبون لقبائل عربية، وهم: أبو بكر الضبي المحاملي، وأبو الفضائل الربعي، وشرف الدين بن أبي عصرون (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ، ١٤/ ٢٨٤؛ ١٧/ ٧٠؛ ١٨/ ١٦٩)، وهذا يعزز ما ذهبنا

إليه سابقاً من أن الموصل كانت أولى المناطق التي استوطنت فيها القبائل العربية خارج الجزيرة العربية.

كشف ابن الجوزي عن مجموعة من السمات الشخصية التي شكلت قاسماً مشتركاً بين قضاة وفقهاء الموصل، ورسم صورة نمطية للعالم والفقيه في تلك الفترة، ويمكن إيجاز أبرز هذه السمات في المحاور التالية:

١ – **الورع والتقوى كأساس للممارسة القضائية:** لم يكن الورع والتقوى مجرد شعار فقط، بل سلوكًا تجسد في مواقف عملية، لاسيما في موضوع القضاء والمال العام، ومن أبرز الأمثلة على ذلك موقف الحسن بن موسى الأشيب الذي رفض عرضاً مالياً ضخماً لبناء بيعة للنصارى، معللاً رفضه بأنها "مُحدثة" لا أصل لها في عهد السلف (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٠/ ٢٠١)، وتجلى الورع في صور أخرى كالعفة والنزاهة، وهو ما أشار إليه ابن الجوزي في وصفه للقاضي أبو بكر الضبي بقوله: ((كان عفيفاً نزيهاً، يسلم الناس من يده ولسانه)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ٢٨٤)، كما أن السمة الدينية كانت واضحة في سيرة القاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي وُصف بأنه: ((فقيه، قارئ، له علاقة بالقرآن والفتوى)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ١٩٦)، وهكذا، يظهر الورع كعامل أساس في توجيه سلوكهم القضائي والفقهي.

٢ – **المكانة العلمية والتأثير الفكري:** لم يقتصر دور أعلام الموصل على نقل العلم وروايته فحسب، بل كانوا شخصيات فاعلة في إثراء الحياة الفكرية من خلال التأليف والتدريس والفتيا، وقد عنى ابن الجوزي بتوثيق هذه المكانة، فأبرز جهودهم في التصنيف وتدوين الحديث، ومن هؤلاء الحسن بن سعيد الصفار الذي قال عنه: ((كثير الكتاب، متعففًا)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٣/ ٣٨)، وأبو الفضائل الربعي الذي ((كتب الكثير، وروى عنه أشياخ بغداد)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٧/ ٧٠)، ولم تكن جهودهم فردية دائماً، بل امتدت لتشمل مجالسهم العلمية، كما هو الحال مع القاضي أبو جعفر السمناني ((كان له في داره مجلس نظر يحضره الفقهاء ويتكلمون)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٥/ ٣٣٨)، أما القاضي شرف الدين ابن عصرون، فقد جمع بين التأليف والتعليم، ((صنَّف كتباً كثيرة، ودرَّس الفقه، وأفتى وناظر)) (ابن المستوفي، ١٩٨٠، ٢/ ٤١٧؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ٢١/ ٣٧٣)، وتُبرز هذه الشواهد علو مكانتهم العلمية التي جعلت منهم مراجع فقهية وفكرية في عصرهم.

٣ – **الرحلة في طلب العلم:** كانت سمة جوهرية في مسيرة معظم فقهاء الموصل وقضاتها، وقد جاب أبرزهم، مثل أبو الفضائل الربعي، وأبو بكر الشهرزوري، وأبو جعفر السمناني، حواضر العالم الإسلامي الكبرى، فرحلوا إلى بغداد مركز الخلافة، وخراسان مركز الحديث، فضلاً عن دمشق ومكة والمدينة، ولم تكن تلك الرحلات مجرد أسفار، بل كانت جزءاً لا يتجزأ من تكوينهم العلمي الذي أهّلهم لبلوغ مراتب علمية رفيعة (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٥/ ٣٣٨؛ ١٧/ ٧٠؛ ١٨/ ٣٧).

٤ – **النزاهة والاستقلال الفكري:** تجاوز مفهوم النزاهة لدى أعلام الموصل مجرد الامتناع عن المكاسب المادية كالرشوة، ليشمل استقلال الرأي والثبات على المبدأ، ويستند في حكمه إلى عقله وعلمه، وقد أشار ابن الجوزي إلى هذه السمة لدى القاضي أبو بكر الشهرزوري بقوله إنه: ((يرجع إلى عقل وثبات)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ٣٧)، مما يدل على استقلاليته الفكرية وعدم تبعيته، وفي السياق ذاته، وُصف منصور بن هبة الله بأنه ((من المجودين في النظر ومعرفة المذهب)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٧/ ٢٥٥)، وهي شهادة بعمق فهمه الذي يمنحه القدرة على الاجتهاد وإصدار أحكام قائمة على بصيرة لا تقليد، إن صفتي النزاهة والاستقلال هما حجر الزاوية في شخصية القاضي، وتعززان من ثقة العامة في القضاء وعدالته.

٥ – **التواضع والزهد:** شكل التواضع والزهد قيمة أخلاقية انعكست بوضوح على السلوك العام لقضاة الموصل، وتأتي هذه السمة كجزء من القيم التي سادت في الأوساط العلمية الإسلامية آنذاك، وتمثلت بقلة في المظاهر، وعدم السعي إلى الشهرة، والابتعاد عن السياسة رغم قرب بعضهم من الخلفاء، فلا يُذكر في تراجمهم حب الظهور أو طلب المال، بل كان كثير منهم زاهدًا وعفيفًا.

٦ – **نموذج من الجرح والتعديل:** على أن الصورة الإيجابية العامة التي ترسمها المصادر لا تنفي وجود بعض الحالات التي كانت موضع نقد وجدل، فمنهج المؤرخين المسلمين، خاصة المحدثين منهم، كان قائماً على الموضوعية في الحكم على الرجال، وخير مثال على ذلك ما أورده ابن الجوزي عن القاضي محمد بن علي الودعاني، الذي وصفه بأنه: ((يروي المناكير والموضوعات)) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٠/ ٢١٠)، وقد بلغت شهرة أحاديثه الضعيفة حداً جعلها تُعرف بـ (الأحاديث الودعانية)، ويُعد هذا النقد، على ندرته، دليلاً مهماً على موضوعية ابن الجوزي الذي لم يقتصر على ذكر المحاسن، بل وثّق ما رآه من مثالب.

المحور الرابع: الشعراء والأدباء

١ – علي بن حرب بن محمد بن علي بن حيان، أبو الحسن الطائي (ت، ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م):

دخل بغداد وحدَّث بها، فروى عنه عبد الله بن محمد البغوي، ويحيى بن صـــاعد، ويوســـف بن يعقوب بن إسـحاق بن البهلول، رجل صـالح، صـدوق، ثقة، كان عالماً بأخبار العرب وأنسـابها وأيامها أديباً شـاعراً، وفد على الخليفة المعتز بالله بسـر من رأى سـنة (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)، فكتب المعتز عنه بخطه ودقَّق الكتاب، وأوغر له ضـياع حرب كلها، فلم يزل ذلك جارياً له إلى الخليفة المعتضـد بالله (٢٧٩ –٢٨٩هـ/ ٨٩٢ – ٩٠٢م)، مات بالموصـل، وقيل مات بسر من رأى وقد جاز التســـعين (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢، ١٣/ ٣٦٤؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٢/ ٢٠١؛ ابن أبي يعلى، ٢٠١١، ١/ ٣٤).

٢ – السري بن أحمد بن السري، أبو الحسن الكندي الرفاء الموصلي (ت، ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م):

شـاعر مجود حسـن المعاني، وله مدائح في سـيف الدولة وغيره من أمراء بني حمدان، وكان بينه وبين محمد وســـعيد ابني هاشـــم الخالديين خصـــومة، وبينهم أهاجي كثيرة، فآذاه الخالديان أذى شـــديداً، وقطعا رســـمه من ســـيف الدولة وغيره، فانحدر إلى بغداد ومدح بها الوزير أبا محمد المهلبي، فانحدر الخالديان وراءه، ودخلا إلى المهلبي، وثلبا ســـرياً عنده، فلم يحظ منه بطائل، وحصـلا في جملة المهلبي ينادمانه، وجعلا هجيراهما ثلب سري والوقيعة فيه، ودخلا إلى الرؤساء والأكابر ببغداد ففعلا به مثل ذلك عندهم، وأقام ببغداد يتظلم منهما ويهجوهما، ويقال: إنه عدم القوت فضـلاً عن غيره، ودفع إلى الوراقة فجلس يورق شـعره ويبيعه، ثم نسـخ لغيره بالأجرة وركبه الدين، ومات ببغداد على تلك الحال، ومن شعره:

يا مَنْ لَديه العفاف والوَرَع وسِيمَتاه العلاء والرِفَع
كأسَكَ قد فَرَقتْ مَفاصِله بين الندامى فَليس يَجْتمع
كأنما الشمس بينهم سَقطتْ فجِسْمُها في أَكُفهم قَطَع
لو لم أكنْ واثقاً بمُشبهه منك لكاد الفؤاد يَنْصدِع
فَجِدْ به بُدعة فَعنْدي من جُودِكَ أشياءٌ كلها بِدَع.

(ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ٢١٨؛ ياقوت الحموي، ١٩٩٣، ٣/ ١٣٤٣؛ ســـبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٧/ ٤٣٧)

٣ – عثمان بن جني، أبو الفتح الموصلي (ت، ٣٩٢هـ/١٠٠٢م):

النحوي، اللغوي، العلامة، له مصـــنفات، منها: "اللمع" و"التلقين" و"التعاقب" و"شـــرح القوافي "و"المؤنث والمذكر" و"سر الصناعة" و"الخصائص" و"شرح المتنبي" وغير ذلك، كان أبوه عبداً رومياً مملوكاً لسـليمان بن فهد الأزدي الموصـلي، وكان ثقة صـدوقاً، برع بالعربية والنحو، وكان يقول الشـعر، ويجيد نظمه، سـكن ابن جني بغداد، ودرَّس بها العلم حتى مات، أخذ الأدب عن جماعة، منهم: أبو علي الفارســـي وطبقته، وقرأ عليه النحو عضـــد الدولة، وكان يعظمه، وقيل: إنه توفي بالموصـــل (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٥/ ٣٥؛ سـبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٨/ ١٣٤).

من خلال ما تقدم يبدو أن العناية باللغة والأنســـاب والتاريخ كانت من ســـمات علماء الأدب الموصـــليين فكان علي بن حرب عالمًا بأخبار العرب وأنســـابها وأيامها (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٢/ ٢٠١)، وهو ما يدل على تأصـيل ثقافي عربي أصـيل، في حين ظهر عثمان بن جني واحدًا كبار علماء اللغة والنحو، له عشـرات المؤلفات في مجال الأدب واللغة (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٥/ ٣٥).

إلى جانب ذلك ارتبط شعراء وأدباء الموصل بالبلاط ارتباطًا وثيقًا، وعكست تلك الظاهرة حقيقتين، تمثل الأولى كونها مصـدرًا للشـعراء والادباء من أجل جمع المال والثروة، فكان للسـري الرفاء ارتباطًا ببلاط الحمدانيين لكنه واجه صـراعات شـخصـية ومنافسـات أدبية، فخسـر تلك الحظوة، وتراجعت معها حالته الاقتصـــادية حتى آل أمره للعمل بالأجرة (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٤/ ٢١٨)، وتدل الثانية على احترام الدولة للعلماء والأدباء آنذاك، وعلى مكانة خاصـة للأديب إذا ما جمع بين الأدب والعلم، فقد وفد علي بن حرب إلى الخليفة المعتز بالله، فأجازه وضبط عنه كتابة بخطه (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٢/ ٢٠١).

المحور الخامس: الزهاد والمتصوفة

تمثل الشخصيات الزاهدة من أهل الموصل بُعدًا مهمًا في الحياة الروحية للمدينة، إذ تُبرز هذه التراجم صـورة الإنســان الموصـلي العابد الذي آثر العزلة، وفضّـل الانقطاع إلى الله على مخالطة العامة أو المشاركة في الحياة العامة والعلمية، رغم كفاءته، وقد عنى ابن الجوزي بتوثيق أخبار هؤلاء، لما في سيرهم من دلالات لسموٍّ روحي، يمكن اعتبارها مدرسة من مدارس التصوف والتزكية الروحية، لا سيما وأنه، أي ابن الجوزي، معروفًا عنه أشهر وعاظ القرن السادس للهجرة، وقد ترجم لأبرز شخصيتين من متصوفي الموصل وهما:

١ – الخليل بن أبي نافع المزني العابد (ت، ٢١٧هـ/ ٨٣٢م):

من أهل الموصل، كان من العباد، كتب الحديث، واختار الصمت والعزلة، وقد اتخذ لوحاً يكتب فيه كل ما يتكلم به، ويحصيه آخر النهار، فيجده بضع عشرة كلمة، توفي ببغداد (الأزدي، ١٩٦٧، ص٤١١؛ الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢، ٩/ ٢٨٩؛ ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١١/ ٥).

٢ – الفتح بن سعيد أبو نصر الكاري الموصلي الزاهد (ت، ٢٢٠هـ/ ٨٣٤م):

كان من قرية شـرقي دجلة من أعمال الموصـل، كان من كبار مشـايخ الموصـل، كبير الشأن في علم المعاملات والورع، ويحكى عنه حكايات في الزهد والورع، كان يحضر بغداد لزيارة أبي نصر بشر بن الحارث الحافي (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١١/ ٦١؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ١٤/ ٢٥١ – ٢٥٢).

تُظهر التراجم المختصـــرة للزهاد من أهل الموصـــل، تفرّدهم في مجالات تهذيب النفس والانقطاع إلى العبادة، ويُدلل هذا على أن الموصل لم تكن فقط مركزًا للعلم والقضاء والأدب، بل كانت أيضًـــا موئلًا للتصـــوف والزهد، وقد حافظ هؤلاء الزهاد على توازن بين التديّن الفردي، والمعرفة الدينية، والارتباط بشبكات الزهد الكبرى، مما جعلهم منارات إيمانية في تاريخ المدينة.

يمكن اســتخلاص ملامح عامة ميزت هذه النماذج، أبرزها الزهد في الدنيا والانصــراف عنها، فقد وصـــف الفتح الكاري بأنه ((كبير الشـــأن في علم المعاملات والورع))، ووردت عنه حكايات في الزهد والورع (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١١/ ٦١)، مما يشـــير إلى نهجه أســـلوب الإعراض عن مباهج الدنيا، أما الخليل المزني فقد آثر ((الصـــمت والعزلة))، وهي من أقوى مظاهر الزهد، فقطع علاقته بالمجتمع طوعًا، وُصـــف أيضًـــا بأنه (من العُبّاد)، وقد نظم حياته بشكل صارم، فكان يكتب كل ما نطق به في اليوم، فيجده بضـع عشرة كلمة فقط (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١١/ ٥)، وهذه الصورة تُمثل أقصى درجات المراقبة للنفس، والورع في القول، وهي قيمة روحية رفيعة في التصوف الإسلامي.

وعُرف كلاهما بـــــالورع، ولكن ما ورد عن الفتح الكاري يشـــير إلى نوع من الورع في المعاملات، أي في أدق تفاصيل الحياة اليومية، وليس فقط في العبادات، يُظهر هذا أن الزهد في الموصل لم يكن انعزالًا فقط، بل كان مصحوبًا بسلوك يومي مضبوط شرعيًا وأخلاقيًا.

المحور السادس: الوزراء والأعيان

اشـــتمل كتاب المنتظم معلومات عن أعلام من رجال الدولة من الوزراء والأعيان، ممن أسـهموا في الشـأن العام، وتولوا مناصـب عليا في السـياسـة والاقتصـاد، وكان لهم أثر بالغ في تعزيز مكانة الموصل داخل الدولة العباسية وخارجها، وهم:

١ – علي بن أبي نصر بن ودعة (ت، ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م):

رئيس التجار بالموصـــل، كان يؤثر عنه الخير والأمانة والديانة، توفي ببغداد، وحملت جنازته إلى الموصل فكان يوماً مشهوداً (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٦/ ٢٦٣).

٢ – محمد بن محمد بن جهير، فخر الدولة أبو نصر (ت، ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م):

ولد بالموصل، كان وزيراً لدولة بني مروان في ديار بكر، ثم طلب للوزارة في عهد الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ – ١٠٧٥م)، بعد خلو منصـب الوزارة فقدم بغداد سـنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٠م)، وتولى المنصـب حتى عُزل عنها سـنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٩م)، لكن ما لبث أن عاد إليها بنفس السنة، ثم وزّر للخليفة المقتدي بالله (٤٦٧ – ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ – ١٠٩٤م)، حتى ســـنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٩م)، فعُزل عنها وغادر إلى الموصـــل، فمات بها (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٦/ ٧٦، ١٠٦، ١٩٨، ٢٩٠).

٣ – محمد بن علي بن منصـــور، أبو جعفر الأصـــفهاني، الملقب بالجمال الموصـــلي (ت، ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م):

كان وزيراً لصاحب الموصل، فكان كثير المعروف دائم الصدقات وآثر إثارة عظيمة بمكة والمدينة فأحكم أبواب الحرم وبنى لها عتباً عالية وأجرى عيناً إلى عرفات، وكانت صـدقته تصـل كل سـنة إلى أهل بغداد فيعم بها الفقهاء والزهاد والمتصـوفة، ولا يخيب من يقصـده بحال إلا أن تلك الأموال فيما يذكر غالبها من المكوس، وبعد وفاته نُقل إلى المدينة ليدفن هناك حســـب وصـيته، فقدموا بجنازته إلى بغداد وصـلى عليه في مقبرة الشـونيزية، ثم حُملت إلى مكة فطيف بها، ثم إلى المدينة ودفن في الرباط الذي عمَّره بين قبر رسـول الله (ص) وبين البقيع، فليس بينه وبين قبر رسول الله (ص) إلا أذرع (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ١٦١).

٤ – محمد بن عبد الله بن القاسم، أبو الفضل الشهرزوري (ت، ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م):

كان رئيس أهل بيته، بنى مدرسة بالموصل، ومدرسة بنصيبين وقف عليها وقوفاً، ولّاه محمود بن زنكي ثم استوزره، ورد بغداد رسولاً فذكر أنه كتب قصة إلى المقتفي، وتوفي بدمشق سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ٢٣٣).

عنى ابن الجوزي باختيار أبرز رجالات الموصل وأعيانها في حقل الإدارة فنقل صور متعددة تمثل الجانب المضيء في شخصيات وسلوكيات من ترجم لهم، وكان من أبرزها: النزاهة والثقة العامة، فقد نال علي بن أبي نصر بن ودعة ثقة مجتمعه، لا بمنصبه بل بسيرته، فوُصف بأنه يؤثر عنه الخير والأمانة والديانة (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٦/ ٢٦٣)، كما ركَّز ابن الجوزي على خصال الكرم العام والعمل الخيري، فأورد مثالًا بذلك تجسد بشخصية محمد بن علي بن منصور، الجمال الموصلي الذي كان كثير المعروف، دائم الصدقات، وامتد إحسانه إلى مكة والمدينة وبغداد، فأجرى عيناً إلى عرفات (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ١٦١)، مما يدل على استثمار حقيقي في البنية التحتية الدينية، وهذا النوع من العمل الخيري يمثل بعدًا حضاريًا واقتصاديًا، ويشير إلى أن الثراء لم يكن وسيلة للترف، بل للأثر العام، وظهر إلى جانبه الشهرزوري الذي بنى مدرستين واحدة بالموصل والأخرى بنصيبين، ووقَّف عليهما أوقافًا (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ٢٣٣)، مما يدل على إدراكه لقيمة الوقف العلمي في تعزيز التعليم ونقل المعرفة .

وألقى ابن الجوزي الضوء على العمل السياسي والتفرد به، فنقل أخبارًا عن فخر الدولة بن جهير الذي تولى الوزارة في عهد الخليفتين القائم بأمر الله، وحفيده المقتدي بأمر الله، وتكرر تعيينه بعد العزل (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٦/ ٧٦، ١٠٦، ١٩٨، ٢٩٠)، مما يدل على ذكاء سياسي، وقدرة على التفاوض، وكفاءة في الإدارة، وجدية في خدمة الدولة المركزية، وقدَّم ابن الجوزي نموذجًا آخر تمثل بالشهرزوري الذي كان رئيسًا لأهل بيته، ووزيرًا لمحمود بن زنكي، وموفدًا إلى بغداد (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ٢٣٣)، ويُظهر هذا، قدرة إدارة فائقة، وإمكانية في تمثيل الموصل في مركز القرار العباسي

وأخيراً تتضح المكانة الاجتماعية المهمة التي نالها بعض من ترجم لهم اين الجوزي من رجالات الدولة من خلال ما أورده بخصوص مظاهر التشييع لجنائزهم بعد وفاتهم، فأشار ابن الجوزي إلى حالتين الأولى، كانت جنازة علي بن أبي نصر بن ودعة، فبعد وفاته ببغداد، وحُملت جنازته إلى الموصل، فكان يومًا مشهودًا (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٦/ ٢٦٣)، والثانية جنازة

الجمال الموصـــلي الذي حُمِل إلى المدينة، ودُفن بين قبر النبي (ص) والبقيع (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٨/ ١٦١)، وكلا المثالين يُظهران أن لهاتين الشـــخصـــيتين رمزية اجتماعية وروحية كبيرة، وأن احترام المجتمع لهما تجاوز حياتهما إلى تكريم استثنائي بعد الوفاة.

الخاتمة:

يتبين من مجمل ما تم دراسته لأخبار رجال الموصل وأعلامها، ما يلي:

- يبدو أن الثقل الأكبر من تلك الاسهامات انحصرت ما بين القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد، في حين تراجع دورهم في القرون اللاحقة، ومن الراجح أن السبب في ذلك يعود إلى تدني المستوى المعيشي في بغداد بعد القرن الرابع مقارنة بما كانت عليه في القرن السابقة.
- يعد رواة الحديث النبوي الشريف والمحدثون أكثر الفئات العلمية الذين قدموا إسهامات فاعلة في الحركة الفكرية ببغداد، مقارنة بالمجالات الأخرى، فأمكننا إحصاء ما يقارب (١٣) راوٍ ومحدث موصلي انتقل إلى بغداد.
- شكَّل العرب النسبة الأكبر من بين المواصلة في بغداد، ويعود السبب في ذلك إلى قدم استقرار القبائل العربية في الموصل ومحيطها حتى أنها كانت قصبة ديار ربيعة إحدى ديارات الجزيرة الفراتية الثلاثة، في المقابل لم نلحظ ألقاباً أعجمية صريحة سوى اثنين منهما.
- اتسم أغلب علماء المواصلة بالثقة والأمانة العلمية والسمعة الطيبة طبقاً لأحكام أصحاب الجرح والتعديل، رغم وجود بعض الشخصيات الذين اتهموا بالكذب ووضع الأحاديث النبوية، إلا أن هذا لا يقلل من السمعة الطيبة لعلماء الموصل.

قائمة المصادر:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت، ٦٣٠هـ) (د. ت) اللباب في تهذيب الأنساب. دار صادر. بيروت.

الأزدي، يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ) (١٩٦٧) تاريخ الموصل. تحقيق. علي حبيبة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) (١٩٩٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. تحقيق. محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت.

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٢٧ هـ) (١٩٥٢) الجرح والتعديل. مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد الدكن. الهند

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) (٢٠٠٢) تاريخ بغداد. تحقيق. بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) (٢٠٠٣) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق. بشار عوّاد معروف. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) (١٩٩٨) تذكرة الحفاظ. دار الكتب العلمية. بيروت.

الزنتاني، توفيق بن عبد الله بن مسعود (٢٠٠٩) تحفة الغريب بتراجم رجال معجمي الحافظ الطبراني الأوسط والصغير ممن ليس في التهذيب. مكتبة ابن عباس القاهرة.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي (ت،٦٥٤ هـ) (٢٠١٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان. دار الرسالة العالمية. دمشق.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ) (١٩٩٣) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو. دار هجر. القاهرة.

السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢ هـ) (١٩٨٢) الأنساب. تحقيق. عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني. مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد – الهند.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) (١٩٨٣) طبقات الحفاظ. دار الكتب العلمية. بيروت.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت، ٧٧٤هـ) (١٩٨٨) البداية والنهاية. تحقيق. علي شيري. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

ابن ماكولا، علي بن هبة الله (ت ٤٧٥ هـ) (٢٠٢٢م) تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام. تحقيق. أبو عاصم الشوامي. المكتبة العمرية. القاهرة.

ابن المستوفي، المبارك بن أحمد (ت، ٦٣٧هـ) (١٩٨٠) تاريخ إربل. سامي بن سيد خماس الصقار. دار الرشيد للنشر. بغداد.

المقريزي، تقي الدين (ت ٨٤٥ هـ) (٢٠٠٦) المقفى الكبير. تحقيق. محمد اليعلاوي. دار الغرب الاسلامي. بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١هـ) (١٩٨٤) مختصر تاريخ دمشق. تحقيق. روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد. دار الفكر . دمشق.

ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) (١٩٩٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق. إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

الجاسم، عبد العزيز خضر عباس (٢٠٢٣) *"استراتيجيات إنشاء الطرقات "الدروب" ببغداد محطات من كتاب المنتظم لابن الجوزي (٥١٠ – ٥٩٧هـ/ ١١١٦ – ١٢٠٠م)"* مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية. مجلد١٠. عدد٣٤. تشرين الثاني ٢٠٢٤. ص٩٧ – ١٢٦.

References

Al-Azdi, Yazid ibn Muhammad (d. 334 AH) (1967) tarikh almusil. Edited by A. Habeeba. Supreme Council for Islamic Affairs. Cairo.

Ibn al-Athir, Izz al-Din Ali ibn Muhammad (d, 630 AH) allibab fi tahdhib al'ansab. dar sadir. birut.

Ibn al-Jawzi, Abd al-Rahman ibn Ali (d. 597 AH) (1992) Al-Muntazam fi Tarikh al-Muluk wa al-Umam. Edited by M. A. Atta & M. A. Atta. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. Beirut.

Ibn Abi Hatim, Abd al-Rahman ibn Muhammad (d. 327 AH) (1952) Al-Jarh wa al-Ta'dil. Council of the Ottoman Encyclopedia. Hyderabad, Deccan. India

Ibn Kathir, Abu al-Fida Ismail ibn Umar (d. 774 AH) (1988) albidayat walnihayatu. Edited by Ali Shiri. Dar Ihya al-Turath al-Arabi. Beirut.

Ibn Makula, Ali ibn Hibat Allah (d. 475 AH) (2022 AD tahdhib mustamiri al'awham ealaa dhawi almaerifat wa'uwli al'afham. Edited by: Abu Asim al-Shawami. Al-Umariyya Library, Cairo.

Ibn Manzur, Muhammad bin Makram bin Ali (d. 711 AH) (1984) mukhtasar tarikh dimashq. Edited by R. Al-Nahhas & R. A. Murad. Dar al-Fikr, Damascus.

Ibn al-Mustawfi, al-Mubarak ibn Ahmad (d. 637 AH) (1980) tarikh 'iirbil. Sami ibn Sayyid Khammas al-Saqqar. Dar al-Rashid Publishing House. Baghdad.

Al-Jassem, A. K. A. (2023) "Road Construction Strategies in Baghdad: Stations from the Book of Al-Muntazam by Ibn al-Jawzi (510-597 AH/1116-1200 AD)" Al-Malwiya Journal of Archaeological and Historical Studies. Volume 10, Issue 34, November 2024. pp. 97-126.

Al-Khatib al-Baghdadi, Ahmad ibn Ali (d. 463 AH) (2002) Tarikh Baghdad. Edited by B. A. Marouf. Dar al-Gharb al-Islami. Beirut.

Al-Dhahabi, Muhammad ibn Ahmad ibn Uthman (d. 748 AH) (2003) tarikh al'iislam wawafayat almashahir wal'aelami. Edited by B. A. Marouf. Dar al-Gharb al-Islami. Beirut.

Al-Dhahabi, Muhammad ibn Ahmad ibn Uthman (d. 748 AH) Tadhkirat al-Huffaz. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. Beirut.

Al-Zintani, T. A. M. (2009) Tuhfat al-Gharib bi Tarajim Rijal Mujamiyy Al-Hafiz al-Tabarani al-Awsat and al-Saghir min min Lais fi al-Tahdhib. Ibn Abbas Library, Cairo.

Sabt Ibn al-Jawzi, Yusuf ibn Qaz Oghli (d. 654 AH) (2013) murat alzaman fi tawarikh

al'aeyan. Dar al-Risala al-Alamiya. Damascus.

Al-Subki, Taj al-Din Abd al-Wahhab ibn Taqi al-Din (d. 771 AH) (2010) tabaqat alshaafieiat alkubraa, edited by M. M. al-Tanahi & A. M. Al-Hilu. Dar al-Hijr, Cairo.

Al-Sam'ani, Abd al-Karim ibn Muhammad (d. 562 AH) (1982) al'ansab. Edited: A. Y. A. Al-Yamani. Council of the Ottoman Encyclopedia. Hyderabad, India.

Al-Suyuti, Abd al-Rahman ibn Abi Bakr (d. 911 AH) (n.d) Bughyat al-Wu'at fi al-Tabaqat al-Lughwiyyin wa al-Nahhat. Edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim. Modern Library. Sidon.

Al-Maqrizi, Taqi al-Din (d. 845 AH) (2006) almaqfaa alkabira. Edited by: M. Al-Ya'lawi. Dar al-Gharb al-Islami, Beirut.

Yaqut al-Hamawi, Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah (d. 626 AH) (1993) 'iirshad al'arib 'iilaa maerifat al'adib. Edited by I. Abbas. Dar al-Gharb al-Islami, Beirut.